الأدب المقارن وبداياته الأولى فی الأدب العربی

علی صابری*

الملخص

إن الأدب المقارن بحث أدبی ظهر فی عالم الأدب فی القرن التاسع عشر، ویعد فرنسا المهد الأول للدراسات المقارنة، فجعل الأدباء الفرنسیون له حدودا، کاقتصاره بالأدب دون الفنون الأخری، واختلاف اللغة، و وجود الصلة بین الأدبین أو الأدیبین.

ولنشأة هذا الفرع الأدبی الجدید عوامل کثیرة منها: ظهور النزعة العالمیة، والدراسات العلمیة، واتساع الأفق الأدبی إثر تطورات ثقافیة کنشاط حرکة الترجمة، وظهور الطباعة، واختراع وسائل المواصلات.

فسرعان ما تسرب إلی الآداب الأخری، ومنها إلی الأدب العربی، فمن الأدباء العرب الذین حاولوا أن یفوزوا بالسباق فی هذا المجال، هم سلیمان البستانی فی مقدمته علی الإلیاذة، وأحمدشوقی فی مسرحیته کیلوباترا، وإلیاس أبوشبکة فی کتابه روابط الفکر والروح بین العرب والفرنجة، وروحی الخالدی فی کتابه تاریخ علم الأدب عندالإفرنج والعرب، وفیکتورهوغو.

الکلمات الدلیلیة: المقارنة، الصلات الأدبیة، التأثیرالأدبی، التأثّر العکسی، النقد المقارن.

*. أستاذ مشارک بجامعة آزاد الإسلامیة فرع طهران المرکزیة (دانشیار دانشگاه آزاد اسلامی واحد تهران مرکزی).

تاریخ الوصول: ۱۳۸۸/۳/۱۰هـ . ش تاریخ القبول: ۱۳۸۸/۵/۲۲هـ . ش

المقدمة

إن الدراسات الأدبية نوعان: نوع يدرس الآثار الأدبية وهو فردى كدراسة الغزل عند عمربن أبى ربيعة، وهذه الدراسة لا تتناول إلا أعمال ابن أبى ربيعة الشعرية واتجاهاته الفنية، ونوع آخر هو دراسة الأحداث الأدبية، كدراسة ظاهرة الغزل فى العصر الأموى التى اشترک فى تنشئتها وتنميتها عدد من الشعراء العرب، وهذا النوع بطبيعة الحال أوسع أفقا من النوع الأول، إلا أنه لايتجاوز حدود الأمة العربية.

ولكننا لو أردنا أن ندرس ظاهرة أدبية عالمية فلابد أن تتصف دراستنا بنوع من الاستمرار والتعاقب، كدراسة نشأة الملحمة، بوصفها ظاهرة أدبية عالمية قديمة، ففى حاجة إلى نوع من الدراسة التى تتناول آداب الأمم المختلفة وعلاقة بعضها ببعض، لما فى نشأتها وتطورها من مشاركة كثير من الأدباء، فإننا الآن نحاول أن ندرس الأدب المقارن وهو أيضا ظاهرة أدبية عالمية شاركت فى تنميتها وتطويرها أقلام كثيرٍ من الأدباء.

ولعل كثرة حجم الدراسات المقارنة لدى العرب والدور الذى لعبه الأدباء العرب فى هذ الحقل الدراسى هما قد شجعانا على أن نبذل جهودنا فى سبيل الكشف عن بداياتها الأولى وكيفية تطورها، وارتباطها بأسباب وعوامل ثقافية وحضارية.

الأدب المقارن وتحديد منطقته

إن لفظ الُمقارَن لغة هواسم مفعول من «قَارَنَ، مقارَنَةً، الشيءَ بالشيءِ: وازَنَه به» وهو صفة من المقارنة (comparison)، والمصطلح الفرنسى الأصلى هو (la littérature comparée) وترجم إلى الإنكليزية بـ (comparative) أى المقارنىّ. أما المقارن اصطلاحا هو منهج، من المناهج الدراسية، اتخذه الإنسان سبيلا للوصول إلى معرفة الحقائق فى شتّى الميادين. إلا أن ما يَهمّنا هنا هو تحديدُ مجال الأدب المقارن، بوصفه علما من علوم الأدب الحديثة، إذ إننا لانقصد، هنا، بالمقارن معناه اللغوى بل نعتقد أن له مدلولا تاريخيّا أدبيا، يدرس الأدب القومى ويَتتبّع علاقاتها التاريخية بغيره من الآداب

الأجنبية وما لهذه العلاقات من تأثير وتأثر، والعلاقات الأدبية أوالصلات الأدبية[1] هى مصطلح يستعمل فى حيِّز الأدب المقارن ليشمل حركة الترجمة والتأثير والتأثر بين أدبين أو مؤلفين فى دولتين مختلفتين (وهبة،١٩٨٤م:٢٥٢). كالصلات الأدبية بين الأدبين اليونانى والرومى قبل الميلاد أو الفارسى والعربى فى العصر العباسى أو بين إنكلترا وفرنسا فى الربع الأخير من القرن السابع عشر. فإن ما نذكر هنا، من الشروط، يحدّد مجالَ الأدب المقارن فى رأى الفرنسيين، إذ إن فرنسا تُعتبر المهدَ الأول للأدب المقارن:

١ـ **اقتصاره على الأدب**، إن مصطلح «المقارن» الذى نتناوله هنا يجب أن لايتجاوز نطاق الأدب إلى غيره من الفنون الإنسانية الجميلة كالرسم، والموسيقى، والنحت، والتصوير، وغيرها. وإن كانت قضيةُ الجمع بين الشعر والفنون الجميلة قديمةً جدا، ترجع بداياتها الأولى إلى الفيلسوف اليونانى أرسطو(٣٨٤ـ٣٢٢ق.م)[2] مؤلف كتاب فن الشعر (Poetics) فى النقد و كتاب البلاغة (Rhetoric) فى الخطابة، حيث أبدى نظريته المعروفة بـ «المُحاكاة»،[3] وهى نظرية بناها أرسطو عندما أراد أن يبين الصلة بين الفن والطبيعة، وأساس نظريته فى كتابه فن الشعر، هو أن الفن محاكاة للطبيعة، وكذلک الشعر، فإذن الرسم يحاكى الأشياء التى يصورها بالألوان والرسوم، والموسيقى تحاكى بالأصوات إيقاعا وانسجاما، والفنون القولية تحاكى الأشياء بالكلام، وتستعين أحيانا بوسائل الفنون الأخرى من إيقاع (rhythm) ولحن (tone) و وزن (meter) (ارسطو١٣٨٢هـ.ش: ١١٣و ١١٥؛ فراى،١٣٧٧ش:١٣٤؛ غنيمى هلال، ٢٠٠١م: ٤٨؛ التونجى، ١٩٩٩م:٧٦٧؛ وهبه،١٩٨٤م: ٣٣٩؛ رضايى، ١٣٨٢ش: ٢٠٨). ثم ظهرت محاولات كثيرة تدَّعى أن الفنون يُفسِّر بعضُها بعضا، كما كتب الأب شارل بتّو[4] كتابا عنوانه الفنون الجميلة على أساس مبدأ واحد[5]، وكذلک ادعى الكاتب العربى الجاحظ (تـ٢٥٥هـ٨٦٩م): «إنما الشعر

1. literary relations
2. Aristotale
3. mimesis
4. Charles Batteux
5. Les beaux arts réduits a um même principe

صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير.» (الجاحظ،۱۹۶۹م،ج۳: ۱۳۱)

فقد كانت هذه النظرية قد سادت الدراسات الأدبية منذ مدة بعيدة وخاصة منذ كان للموسيقى دور هام فی المسرحيات قبل انفصال المسرحيات الغنائية عن المسرحيات التمثيلية، إلا أن المقارن المتعارَف عليه هنا، لا يهتم إلا بمقارنة أدب معين بأدب آخر أو بعدد من الآداب الأخرى، لابمقارنة الأدب بالموسيقى، أو غيرها من الفنون الجميلة الأخرى.

۲ـ **الاختلاف فی اللغة**، إن اللغة هی الفاصلة بين الأدب المقارن وغيره من الدراسات الأدبية لا الحدود السياسية والجغرافية، فدراسة مدارسِ الشعر فی الدول العربية، أو الموازنة بين الرواية البوليسية[1] فی الأدب الأميركی والأدب الإنكليزی، التی تكتب فيهما باللغة الإنكليزية لا تُعدّ من الأدب المقارن، كما أن مقارنات كالموازنة بين الشاعرين فی الأدب العربی أبی تمام (۱۸۸ـ۲۳۱هـ =۸۰۴ـ۸۴۶م) والبُحتُریّ (۲۰۶ـ۲۸۴هـ =۸۲۱ـ۸۹۷م) أو الموازنة بين المسرحيَّين فی الأدب الفرنسی ككورنی (۱۶۰۶ـ۱۶۸۴م) وراسين (۱۶۳۹ـ۱۶۹۹م)[2] وغيرهما لايمكن اعتبارها أدبا مقارنا.

۳ـ **وجود الصلة**، مما يحدد نطاق الأدب المقارن الذی نتحدث عنه، هو الصلة التاريخية، إذ إن ميدان الأدب المقارن هو التلاقی التاريخی بين مختلف الآداب، ومما لاشک فيه أنه لو لم توجد صلةٌ أو تلاق بين الأديبَين أو الأدبَين لَمَا وُجِد التأثيرُ والتأثر.[3]

ومن الضروری أن نعرف أن التَّأْثير الأدبیّ هو أحد الأمور الآتية: أ) تأثير أديب أو مؤلفاته على أديب آخر كما تأثر الناقد المصری المعاصر طه حسين (تـ۱۹۷۳م) بالكاتب العربی المعروف الجاحظ (تـ۸۶۹م) وتأثر الشاعر المعاصر أحمد شوقی (تـ۱۹۳۲م) بالشاعر الشهير فی العصر العباسی المتنبی (تـ۹۶۵م). ب) تأثير تيار[4] أدبی ماض على

1. *detective novel*
2. *Pierre Corneille* و *Jean Racine*
3. *literary influence*
4. *current*

أديب لاحق. أو تأثير تيار أدبی أجنبی ماض أو معاصر على أديب معيّن، كتأثّر الشيخ محمد عبد المطلب (تـ١٩٣١م) وهو من شعراء مدرسة المحافظة فی العصر الحديث بالشعر الجاهلی، وتأثر أدباء العرب المعاصرين بالمدارس الواقعية والرمزية[1] فی الآداب الأوربية. ج) تأثير مؤلفات أديب معيّن على روح عصره وذوقه العام، كتأثير طه حسين على روح الجيل بعد الحرب العالمية الثانية. (وهبه،١٩٨٤م:٨٢)

فإن الدراسات المقارنة بين كتّاب من آداب مختلفة، ما لم تَقم بينهم صلات تاريخية، لا تدخل ضمن الأدب المقارن، لأنها لاتكشف عن جوانب تأثر الكتّاب فی الأدب القومی بالآداب العالمية فإذن لاتُعد الموازنةُ بين الشاعرالإنكليزی جون ملتن (١٦٠٨ـ١٦٧٤م)[2] صاحب ملحمة الفردوس المفقود[3] وهی من روائع الأدب العالمی، والشاعر الفيلسوف العربی أبی العلاء المعری (٣٦٣ـ٤٤٩هـ =٩٧٣ـ١٠٥٧م)، مؤلف رسالةالغفران لكونهما أعميَين ولكل منهما آراء متشابهة فيما يخص الدين، من الأدب المقارن، إذ ليس بينهما صلة تاريخية، ولم يعرف أحدهما الآخر حتی يتأثر به، كما أنّنا لانَعُدّ كِتابَ راسين و شكسبير[4] أثرَ الكاتب والروائی الفرنسی سْتاندال (١٧٨٣ـ١٨٤٢)[5]، مقارنا بهذا المعنی، حيث قام بالمقارنة بين جان باتيست راسين (١٦٣٩ـ١٦٩٩م) وهو شاعرمسرحی فرنسی، يعتبر أحد أعظم المسرحيين الكلاسيكيين فی تاريخ الأدب كله، و ويليام شكسبير (١٥٦٤ـ١٦١٦م) وهو شاعر إنكليزی يُعتبر أعظم الشعراء والمسرحيين الإنكليزيين بلا استثناء، ومن أبرز شخصيات الأدب العالمیّ، عاش فی لندن، واشتغل بالمسرح وألف ما يناهز الأربعين مسرحية شعرية عميقة التحليل للنفس الإنسانية وأثّر فی كل شعراء العصور التالية.

نشأة الأدب المقارن

ومما لا يَخفی على أحد هو أن نظرية الأدب المقارن نظرية حديثة جدا، ترجع

1. *realism* و *symbolism*
2. *John Milton*
3. *Paradise Lost*
4. *William Shakespeare* و *Jean Baptiste Racin*
5. *Stendhal*

بداياتها الأولى إلى العقدالثالث من القرن التاسع عشر، وإن نجد دراساتٍ مقارنةً، أحيانا، ضمن نطاق الأدب الواحد، وأحيانا أخرى، بين الآداب المختلفة، ولا يمكن لنا أن نُنكر أثرَها فی ميلادها، كـالسِّيَرالموازية[1] لكاتب السيَر اليونانی بلوتارک[2] (۴۶ـ۱۲۰م)، والدراسات التی نجدها لدی العلماء الألمان المعروفة بتاريخ الموضوعات[3] منها دراسة مأساة فاوست (faust) أثر غوته فی الأدب الألمانی والفرنسی، أو كيلوباترا (Cleopatra)، فی الأدب الفرنسی والإنكليزی والعربی.

إلا أن الأدب المقارن فی مفهومه الحالیّ عِلْمٌ حديث من علوم الأدب، وفرع جديد من فروع المعرفة الأدبية، التی تُحاول الكشف عن ميادين التأثير والتأثر وبيان العلاقات الأدبية الدولية، فإذن لانعرف فی العصور القديمة من أبواب البحث الأدبی ما يُشبه هذا الأدب المقارن، لا فی أهدافه ولا فی مناهجه. وأول من استخدم مصطلح الأدب المقارن (la literature comparée) فی الغرب، هو أستاذ الأدب لِجامعة سوربون والناقد الفرنسیّ فرانسوا فيلمان (۱۷۹۰ـ۱۸۷۰م)[4]، عند إلقاء محاضرات أدبية ـ تاريخية تدور حول علاقات الأدب الفرنسی مع الآداب الأوربيّة الأخرى سنة ۱۸۲۸م. (غنيمی هلال، ۱۹۹۹م: ۱۱)

ولكن الباحث الفرنسی جون جاک أمبير، هو أول من كان قد نبّه قبل فيلمان إلى ما من الأهمية التاريخية لدراسة الأدب المقارن، كما أن شعراء جماعة الثريا أو البلياد[5]، وهم طائفة من أوائل الشعراء المجددين فی الأدب الفرنسی فی عصر النهضة الأوربية (منتصف القرن السادس عشر)، قد نبهوا إلى العودة إلى نصوص الأدبين اليونانی واللاتينی، فی دعوتهم إلى المحاكاة للنماذج الجيدة فی الآداب الأجنبية عندما أخذوا يدعون عمليا إلى تجاهل الشعر الشعبی ويشجعون على المحاكاة للآداب اليونانية

1. *Parallel Lives*
2. *Plutarch*
3. *Stoffgeschichte*
4. *François Villemain*
5. *Pléiade*

والرومانية. (دورانت، ۱۳۷۸هـ‌ش، ج۱۱: ۳۹۲؛ خانلرى، ۱۳۷۵هـ‌ش:۱۵۷۱؛ رضايى، ۱۳۸۲هـ‌ش: ۲۶۱)

ثم انتقل الأدب المقارن من فرنسا إلى البلدان الأخرى، وشاع بين جميع الأمم لأسباب متعددة. (غنيمى هلال، ۱۹۹۹م: ۱۱؛ أنوشه، ۱۳۷۶هـ‌ش: ۴۲؛ رضايى، ۱۳۸۲هـ‌ش: ۱۸۱)

فقد كان القرن التاسع عشر عصر التقدم والرُّقىّ فى أوربا فوُجدت هناك عوامل مختلفة أثرت فى نشأة الأدب المقارن ونموّه، وإننا نوجزها الآن فيما يلى:

۱ـ **اتساع أفق الأدب**، وهذا الاتساع الأدبى راجع إلى تحولات ثقافية وعلمية مختلفة انتهت إلى تطورات أدبية مرتبطة بالتغيّرات الاجتماعية، والسياسية، وهى: أ) **اختراع وسائل المواصلات السريعة** (راغب،۲۰۰۳م: ۵۰۰)؛ ب) **ظهور الطباعة** (دورانت، ۱۷۷۸هـ‌ش، ج۶: ۱۹۱). ج)؛ **نشر الجرائد و المجلات**؛ د) **نشاط حركة الترجمة**.

۲ـ **ظهور النَّزْعة العالمية** (cosmopolitanism)، وهى نزعة ترمى إلى اعتبار الإنسان أسرةً واحدة، وطنُها العالم، وأعضاءها أفراد البشر جميعا، رغم اختلاف لغاتهم وانتمائهم إلى حدود جغرافية. (تراويک،۱۳۷۳هـ ج۲: ۸۷۵؛ التونجى، ۱۹۹۹م، ج۲: ۸۳۴؛ وهبه، ۱۹۹۴م: ۳۹۵)

۳ـ **ازدهارالحركةالرومانتيكية/الإبداعية/الرومانسية** (Romantic Movement)، هى حركة فكرية، وفنية وأدبية حديثة، ظهرت فى أواخر القرن الثامن عشر فى أوروبا معارضةً لقواعد الكلاسيكية (classicism) التى كانت تعتمد على إحياء الأصول والتقاليد الأدبية الشائعة فى الحضارتين اليونانية والرومانية، مطالبةً بأدب جديد يدفع الإنسان نحو الطبيعة وإيثار الحس والعاطفة وتفضيلهما على العقل والمنطق، والمثالى على الواقع، داعية إلى الإفادة من الآداب الأخرى لاكتشاف ألوان الجمال فى تلک الآداب، ودراستها فى لغاتها الأصلية. وهذه كلها أدت إلى مجال مناسب للدراسات المقارنة بين الآداب الأوروبية، ثم بين آداب الشرق والغرب. (راغب، ۲۰۰۳م: ۳۱۲؛ حسينى،۱۳۸۱هـ ج۱: ۱۷۷؛ رضايى، ۱۳۸۲هـ‌ش:۲۹۱)

٤ـ الدِّرَاسَاتُ العِلْمِيَّة (scientific studies)، إنّ قضية صلة الأدب بالعلوم الإنسانية كعلم التاريخ، وعلم الاجتماع وعلم النفس، وتأثيرِالمناهج العلمية فی فهم الأدب، ظاهرة بدت إثر المحاولات النقدية والأدبية، وظهور النظرية العلمية (scientism) التی تقول بأن طرائق العلوم الطبيعية والإنسانية يجب أن تصطنع فی جميع حقول المعرفة، ترجع بداياتها إلی محاولات أفلاطون وأرسطو (انظر راغب، ٢٠٠٣م: ۴۶۷). وحين رأی الأدباء الباحثون ضرورة إخضاع المادة الأدبية لمعطيات العلم المعاصر، وخاصة بعد انهيار دعائم النزعة الفردانية (individualism) التی ترى أن الفرد أعلی ما فی الكون قيمة، فإن المصالح الفردية يجب أن لا تُخضَع لسيَطرة الحكومة أو المجتمع، فمن ثم تدعو إلی سعادة الإنسان الفرد، فدفعت الظروفُ الحياةَ الجديدة المتطورة نحو الجماعية (collectivism) التی هی فی الأصل المبدأ الاشتراكی القائل بسيطرة الدولة أو الشعب ككل، على جميع وسائل الإنتاج أو النشاطات الاقتصادية، فمن ثَمّ اهتم علم الاجتماع الأدبی (literary sociology) بالأدب كظاهرة اجتماعية وربط بين الأدب والفن بعوامل العرق، والبيئة، والتاريخ، والظروف الاجتماعية، وغير ذلک، فبالغ العلماء فی هذا الأمر حتی قالوا بحتمية الأثر الاجتماعی، وبخاصة الفيلسوف المؤرخ، والناقد الفرنسی هيبوليت تين، (١٨٢٨ـ١٨٩٣م) صاحب نظرية تأثر الأدب بالعوامل الثلاثة هی الجنس (race)، والبيئة (milieu)، والزمن (moment)، وقد حاول فی نظريته أن يُطبِّق المنهج العلمی فی النقد الأدبی، فاعتقد بضرورة دراسة تلک العوامل النفسية والطبيعية الثلاثة التی هی العوامل الحتمية فی تكوين الأدب، فی الدراسات النقدية، كما أن الأدباء اعتبروا أدبَهم فی مجال المَعنی والرسالة مِرآةً صادقة، تَعكِس المجتمعَ الإنسانیَّ، ومِصباحًا مُنيرا، يُزيلُ الظُّلمةَ التی سادتْه منذ عصورٍ طويلة، فجعلوه أداةً بنّاءة و وسيلة مؤثّرة لإبْعاد المجتمع عن الجهل والركود والفساد. فيبدو أن شارْلز دادلی وارنِر(١٨٢٩ـ١٩٠٠م)[1] ألف مقالته علاقة الأدب بالحياة[2] ليبيِّنَ هذه الصلةَ الوثيقة. (ديچز، ١٣٧٣هـ ش: ٢٠٧؛ گرين، ١٣٨٠هـ ش:

1. *Charles Dadley Warner*
2. *Relation of Literature to life*

٢٦٨؛ شميسا، ١٣٧٨هـ.ش: ٢٥٥؛ راغب، ٢٠٠٣م: ٣٢٦)

٥ـ انتشار المَنهَج المُقارن (comparative method): إن انتشار المقارنات العلمية كعلم التاريخ المُقارَن (comparative history) وعلم اللُّغَةِ المُقارَن (comparative linguistics) وقَواعِدُ اللُّغَةِ المُقَارَنَة (comparative grammar)، وعلم الحياة المقارن (comparative biology) وغيرها مما دعا الأدباء الباحثين إلى اقتراح «الأدب المقارن» على قياس العلوم الأخرى المقارنة، وإن تختلف مناهج الدراسات المقارنة فى مجالات العلوم وغايتها بالنسبة إلى دراسة الأعمال الأدبية.

البدايات الأولى من الأدب المقارن لدى العرب

أما المقارنات فى الأدب العربى، فإذا راجعنا تاريخ الدراسات الأدبية لدى العرب لوجدنا بعض ملامح هذا النوع من الدراسات منذ أقدم عصور، فالموازنة بين أبى تمام والبحترى هى خطوة خطاها الآمدى (تـ٣٧٠هـ) نحو المقارن، أو كما عبَّر عنه إحسان عباس بقوله: «الموازنة وثبة فى تاريخ النقد العربى بما اجتمع له من خصائص لا بما حققه من نتائج.» (مندور،١٩٩٦م: ٣٤٣ وما بعدها). وهى فى الحقيقة استمرار لتلك المفاضلة التى كانت سائدة فى الدراسات النقدية منذ العصر الجاهلى إلا أنها أصبحت نشاطا أدبيا يختلف اختلافا باهرا عن تلك المفاضلات القديمة، كما نرى هذا النوع من الدراسات لدى زكى مبارك فى كتابه الموازنة بين الشعراء فإنه قد قارن فى كتابه بين كثير من الشعراء القدماء والمعاصرين، كالمقارنة بين البحترى وشوقى، ص١٠٤، والبوصيرى وشوقى، ص١٤٦، والبوصيرى وشوقى والبارودى، ص١٥٥، والبارودى وأبى نواس، ص٢٥٣، وغيرهم. إلا أنهما لم تتجاوزا الحدود القومية إلى الآداب الأجنبية، فإذن لايتدرجان فى الأدب المقارن فى رأى الفرنسيين الذين يرون أن الاختلاف فى اللغة، لا الحدود السياسية، هو الحد الفاصل بين الأدب المقارن والدراسات المقارنة الأخرى، فإننا نعتبر تلك الدراسات موازنة لا مقارنة.

إلا أن الأدب المقارن فى مفهومه الجديد لم يظهر لدى العرب إلا بعد ازدياد نفوذ

الأجانب، وتعرفهم بمنجزات الحضارة الأوروبية وفنونها الأدبية، وبخاصة الفرنسية، واستطاعوا أن يطلّوا بواسطتها على آفاق جديدة فى الحياة الثقافية والأدبية، إما عن طريق الترجمة ونقل منتجات الفكر الغربى إلى اللغة العربية، وإما عن طريق الاطلاع المباشر على فنون آداب الغربيين بعد إرسال بعض البعثات العلمية إلى أوروبا (زيدان،١٩٩٢م، ج٤: ٣٨١)، حيث جعلت الباحثين يُعنَون بدراستها عناية واسعة ويقفون على نتاج عقولهم؛ وإن كان الأمر فى البدء يقف عند حد الترجمة والاقتباس والتقليد، إلا أنهم رغبوا فى المقارنة بين ما بين أيديهم من تراثهم القديم وبين الآراء التى اقتبسوها من الغرب بعد ازدياد نفوذ الأدب الأجنبى وإعجاب أبناء البلاد العربية بذاك الأدب الذى عكفوا على ترجمته حينا وتقليده حينا آخر. (الدقاق، لاتا: ٢٠٣)

فهذا الاتصال الثقافى قد غرس البذور الأولى لفكرة المقارنة (الكتانى، ١٩٨٢م، ج٢: ٨٣٨) التى أدت إلى ظهور الأدب المقارن لدى العرب ودراسة تاريخ العلاقات الدولية، فيكفينا هنا أن نشير إلى المحاولات الأولى فى هذا المجال، التى تعد تمهيدا لظهور هذه الدراسات، كما يعد أصحابها رُوّاد الأدب المقارن فى تاريخ الأدب العربى، منهم اللغوى اللبنانى أحمد فارس الشدياق (١٨٠١ـ١٨٨٧م) فى كتابه كشف المخبّأ عن كنوز أوروبا، وأمين فكرى المصرى (١٨٩٩م) فى إرشاد الألبّا إلى محاسن أوروبا، ورفاعة الطهطاوى(١٨٠١ـ١٨٧٣م) فى كتابه تخليص الإبريز فى تلخيص باريز الذى يتناول رحلته إلى باريس وما شاهده هناك ويقابل بين قواعد اللغة الفرنسية وقواعد اللغة العربية كما يقابل بين العرب والفرنسيين فى علم البلاغة ومقاييسه، كما وازن الأديب السورى نجيب الحداد (١٨٦٧ـ١٨٩٩م) بين الشعر العربى والشعر الغربى وأثبت أن المقياس فى الشعر العربى هو المقاطع اللغوية المكررة فى البيت المعروفة بـ«التفعيلة» بينما هو فى الشعر الغربى الأهجية اللفظية المسماة بالأقدام (foots)، كما وازن بين القافية فى الشعر العربى والقافية فى الشعر الغربى. (الدسوقى، ٢٠٠٣م: ٢٢٦)

إلا أن هذا المجال الضيق لايسع دراسة كل هؤلاء الأدباء، فلابد أن نقصر بحثنا على بعض منهم دون بعض فإن هناك دراسات قيمة أخرى فى هذا المجال يمكن للباحثين

الرجوع إليها فيكفينا أن نشير إلى رواد هذا البحث وهم:

أ) **سليمان البستانى** (١٨٥٦ـ١٩٢٥م)، علامة موسوعىّ، وعالم، وأديب، وكاتب، وشاعر لبنانى، أتقن عدة لغات، وشغل عدة مناسب سامية فى الدولةالعثمانية، طوف بأقطار أوروبا وأميركا واشترك فى إتمام دائرةالمعارف، ونال شهرة واسعة بتعريبه إلياذة هوميرس[1] شعرًا وبالمقدمة التى وضعها عليها.

أما من الناحية المقارنة فهو معرّب الإلياذة وهى أشهر ملاحم العالم تقع فى أربعة وعشرين نشيدا قصصيا، تدور حوادثها البطولية على أخبار الحروب التى نشبت بين اليونان والطرواد[2]، لسيد الشعراء هوميروس، (حوالى القرن الثامن ق.م)، وهو أعظم شعراء اليونان القدماء.

فقد قام سليمان البستانى بأول محاولة جادة فى مجال الأدب المقارن فى الأدب العربى بترجمة الإلياذة وكتابة مقدمة نقدية، أصبحت نموذجا للدراسة الأدبية، ومقارنة الآداب، حيث حاول أن يوازن فيه بين جاهلية العرب وجاهلية اليونان ويقارن بين الملحمة اليونانية والشعر العربى القصصى، ويثبت عدم وجود الملحمة فى الأدب العربى القديم نحو ما لدى الغرب، وأشار إلى ما لدى العرب من الشعر القصصى الذى يعالج بعض الحوادث كوقائع حرب البسوس ليبين أوجه الاختلاف بينه وبين الملاحم المعروفة وينفى عن كون تلك الأشعار ملحمة بحجج فنية كوحدة الصوت فى الإلياذة وتعدد الأصوات فى تلك القصص ويقول:«...ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها رأيتهم جميعهم شعراء فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة وأخوه مهلهل وكذلك مرة شاعر وابنه جساس شاعر وكلّ ذى شأن فى القصة من غريب وقريب شاعر، كالحارث بن عُباد وحجْدر بن ضبيعة فمجموع شعرهم أشبه من هذا الوجه بالشعر التمثيلى لأن لكل حادثة شاعرا ينطق بها بخلاف نهج شعر الملاحم كالإلياذة إذ ترى هوميروس فيها ينطق بلسان الجميع» (البستانى، ٢٠٠٤م: ١٧٠). كما قارن بين اللغة

1. *Iliad, Homer*
2. *Troy*

العربية واللغات القديمة كاليونانية واللاتينية، ورأى أنها أَطْوَلُ اللغات الحية عمرا وأثبَتُهنّ قدما، ويعود هذا الفضل إلى القرآن الكريم الذى حفظها طوال العصور، ويقول: «إن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمرا وأقدمهن عهدا والفضل فى كل ذلک للقرآن. فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميرس وهسوديس [(Hesiod) (حوالى ٨٠٠ق.م.) شاعر يونانى] على علو منزلتها لم تُقم للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى فى بلادها...» فإن اللغة اليونانية اليوم ليست لها علاقة باللغة التى كتبت بها الألياذة إذ لا صلة هناک تجمع بين لغته القديمة ولغتها الحديثة (المصدر السابق:١١٣) فمن الممكن أن نعد عمل البستانى هذا فى النقد والأدب فاتح باب الدراسات المقارنة فى الأدب العربى إذ إنه قارن طبيعة الأوزان العربية وصلتها بالموضوعات الشعرية والحالات النفسية والشعر عند العرى هو الكلام الموزون والمقفى بينما لاتعرفه الآداب الأجنبية وخاصة الإفرنج والشعر عندهم يقوم على واقع نغمى صادر من أجزاء ومقاطع (المصدر السابق:٩٠). وطبيعة اللغة العربية فى التعبير والتشبيه والمجاز باللغة اليونانية (المصدر السابق: ١٧٦). وبسّط ذلک فى صفحات عديدة من مقدمته، وانتشار هذه المقارنات النقدية فى الصحف والمجلات دعا الأدباء إلى مواصلة هذ النوع من الدراسات الأدبية التى لم يكن لهم عهد بها.

ب) **أحمد شوقى** (١٨٦٩ـ١٩٣٢م) من أشهر شعراء مصر وأمير شعراء العرب فى العصر الحديث، ولد بالقاهرة ودرس الحقوق والآداب بفرنسا له ديوان الشوقيات، وعدة مسرحيات أشهرها مصرع كيلوباترا. وكيلوباترا (Cleopatra) شخصية تاريخية فى مصر والرومان، أوصاها أبوها أن تتزوج أخاها ويرتقيا العرش معا بعد موته. وقد أعجِب القيصر بها، وتلاقت آمالهما الواسعة، لكن الموت عاجله، وحين قدمَ أنطونيو (Antunny) تزوجته، وأغرته بمحاربة اوكتافيوس (Octavian) على أمل السيطرة على العالم الرومانى كله. صارت شخصيتها عالمية فى الأدب، فتناولها شكسبير فى مسرحيته التاريخية آنطوان وكيلوباترا،[1] ثم الشاعرالناقد والمسرحى الإنكليزى جون درايدن (١٦٣١ـ١٧٠٠م)[2] فى مأساته العالم المفقود[1]، والكاتب المسرحى الإنكليزى جورج برناردشو

1. *Antony and Cleopatra*
2. *John Dryden*

(۱۸۵۶ـ۱۹۵۰)[2] فی ملهاته القیصر وکیلوباترا[3]. (دورانت، ۱۳۷۸هـ.ش: ۲۳۷؛ غنیمی هلال، ۱۹۹۹م: ۳۲۲؛ التونجی، ۱۹۹۹م، ج۲: ۷۲۸)

إن عمل شوقی هذا یعد التأثُّرالعَکْسِیّ (influence á rebours)، وهو من القضایا التی تتدرج فی الأدب المقارن، والتأثر العکسی هو أن یقاوم الکاتب أثر کاتب آخر فی أدب أمة أخری فینتج من هذه المقاومة أثرها فی تألیفه کما فعل رسول پرویزی، الکاتب الإیرانی، فی قصة عبد السلام مادر مرده، من مجموعة لولی سرمست فی مقاومته قصة لیلی مجنون، فی الأدب العربی. (غنیمی هلال، ۱۹۹۹م: ۱۶و۳۲۲؛ أنوشه، ۱۳۷۶هـ.ش: ۴۱)

وهکذا أحمد شوقی فی مسرحیته المعروفة کیلوباترا، التی ألفها شعرا، فاستمد قصتها من تاریخ مصر أیام الرومان، لینظر إلیها بعین مصریة ویصور صورة کیلوباترا الحقیقیة، وربما کان الهدف الأساسی من نظم شوقی هذه المسرحیة، الدفاعَ عن الملکة المصریة حتی یسقط عنها کثیرا من تهم التاریخ، وینصر کیلوباترا التی ظلمها الکتاب الأوربیون ویصورها بطلة وطنیة مخلصة، تؤثر وطنها علی حبیبها وتجتهد لمجد وطنها بتقدم مصالح مصر علی مصلحتها الشخصیة.

إن أحمد شوقی یناجی فی هذه المسرحیة الشعریة، أنوبیس (Anubis)، وهو إله المقابر عند المصریین القدماء، قائلا:

یَقُولُون أنُوبیسُ وَلُوعٌ بأفاعیه ومَشْغُوفٌ بِثُعْبانٍ مِن الوَادِی یُرَبِّیْه
وفی نَادِیه حیَّاتٌ مِنَ الجِنّ تُناجیه وَلَو ذَاقُوا هَوَی العِلْم کَما ذُقْتَ فَنُوا فیه
ألا یا رُبّ خَدّاعٍ من الناس تُلاقِیه یَعِیبُ السَّمَّ فی الأفْعَی وکلُّ السّمّ فی فیه

(أحمد شوقی،۱۹۸۸م: ۴۰۵)

ج) **إلیاس أبوشبکة**، (۱۹۰۳ـ۱۹۴۷م) شاعر رومانسی متأثر بالرومنسی الفرنسی، ذو ثقافة واسعة أخذها من الأدب العربی والأدب الفرنسی، وتأثّر بها شعرُه وأدبه؛ ولد

1. *World well Lost*
2. *George Bernard Shaw*
3. *Caesar and Cleopatra*

أبو شبكة فی نيويورک، ثم عاد إلی بلاده واشترک فی تحرير عدد من الصحف العربية، له كتب فی الشعر والنثر وعدد كبير من الكتب المترجمة، إلا أنّ ما يهمنا من أعماله فی هذا المجال هو كتيب له فی النقد والتاريخ الأدبی ظهر سنة ١٩٤٣م، عنوانه روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، فقد حاول المؤلف فی هذا الكتيب أن يبين مدی تأثير الأدب الفرنسی فی آداب الأمم الأوروبية أولا وفی الآداب الشرقية والغربية كلها ثانيا، بدراسة آثار الحضارة الفرنسية التی نقلت إلی الشرق بعد حملة الإمبراطور الفرنسی بونابرت نابليون(١٧٦٩ـ١٨٢١م)[1] أول يوليو ١٧٩٨م وظهور المثقفين المسيحيين الذين كانوا يُعَدون جسورا لانتقال الأفكار الحديثة إلی الشرق ويساهمون فی فجر النهضة الأدبية بنقل بعض آثار الفكر الغربی إلی اللغة العربية، وفی النهاية يعد الثورة الفرنسة منشأ هذه الحركة الأدبية فی الأدب العربی، وهذه المعطيات جعلت أباشبكة أن يدعی: كما أن الحركة الرومانسية هی التی حملت لواء الثورة الأدبية الفرنسية علی الكلاسيكية فمن الواجب أن تحمل لواء النهضة الأدبية العربية علی الأدب القديم حركة رومانسية مقتبسة من الأدب الفرنسی. فاستطاع أن يسهم بآرائه النقدية وإعجابه بالحركة الرومانسية الغربية فی غرس بذور الأدب المقارن فی أرض الأدب العربی الخصبة.

د) **محمد روحی الخالدی** (١٨٦٤ـ١٩١٣م)، أديب سياسی ومثقف فلسطينی، ولد بالقدس، ودرس فی معهد اللغات الشرقية بباريس، وتولّی عدة مناصب سياسية، له مصنفات فی التاريخ والسياسة والأدب. وإذا أردنا أن نأخذ مثالا، ليكون أبرز روّاد البحث المقارن فی الأدب العربی، فهو الخالدی الذی يعتبر الرائد الأول للأدب العربی المقارن التطبيقی، فی كتابه المسمی تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو الذی يحتوی علی تاريخ علم الأدب عند الإفرنج وما يقابله من ذلک عند العرب إبَّان تمدنهم إلی عصورهم الوسطی وما اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر فی نهضتهم الأخيرة عن طريق الأندلس، وخصوصا علی يد فيكتور هوكو

1. *Bonaparte Napoléon*

(١٨٠٢ـ١٨٨٥م)[1] شاعر وروائى وكاتب مسرحى، من أعلام الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر، صاحب رواية البؤساء[2]. الشهيرة، ورأس المدرسة الرومانسية فى الأدب الفرنسى ليستخلص أن كل ثورة اجتماعية وسياسية جديدة أو بعبارة أخرى، كل عصر جديد يتطلب نوعا من التجديد فى النظم والنثر كما أن الانقلاب الفرنسى أدى إلى انقلاب فى عالم الأدب.

فهذه المحاولات الأولى وما أثارته من نقاش وحوار أدبى فى الصحف والمجلات هى التى أوحت إلى الأدباء بالدراسات الجادة التى قادتهم إلى المقارنة بين الآداب الغربية والآداب الشرقية، حتى جاء بعدهم أدباء آخرون وحملوا لواء تلك الأفكار الحديثة ودافعوا عنها وطوروها إلى ما نراه اليوم.

النتيجة

ونتيجة البحث أن العلاقات الأدبية والتأثير والتأثر عمل ثقافى مشروع يحدث دائما بين أدبين أو أكثر إثر الصلات التاريخية متجاوزا النزعات الشعبية والقومية، والأدب العربى بكونه أحد الآداب العالمية العريقة قد دعاه الإعجاب بالظواهر الأدبية الغربية الحديثة إلى هذا التأثر، فأخذ يتناول الأدباء العرب ظاهرة الأدب المقارن حيث استطاعوا أن يطلوا بوساطته على آفاق جديدة فى حياتهم الأدبية، ليربطوا أدبهم بالآداب العالمية الأخرى، ومن بواكير هذه المحاولات ما قام به سليمان البستانى فى مقدمة الإلياذة، وأحمد شوقى فى مسرحيته كيلوباترا، وإلياس أبوشبكة فى كتابه روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة، وروحى الخالدى فى كتابه تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب، و فيكتور هوكو.

1. *Victor Marie Hugo*
2. *Les Misérables*

المصادر والمراجع

أرسطو (Aristotle). ۱۳۷۱هـ.ش. *فن الخطابة (Rhetoric)*. ترجمة پرخيده ملكى. الطبعة الأولى. طهران: منشورات إقبال.

ـــــــــــــــ . ۱۳۸۲هـ.ش. *فن الشعر (Poetics)*. ترجمة عبدالحسين زرين كوب. الطبعة الرابعة. تهران: أميركبير.

أنوشه، حسن. ۱۳۷۶هـ.ش. *فرهنگنامه أدبی فارسی*. الطبعةالأولى. طهران: سازمان چاپ و انتشارات.

تراويک، باكنر.ب. ۱۳۷۳هـ.ش. *تاريخ ادبيات جهان (The World Literature)*. ترجمه عربعلى رضايى. الطبعة الأولى. تهران: فرزاد.

التونجى، محمد. ۱۹۹۹م. *المعجم المفصل فى الأدب*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الكتب العلمية.

الجاحظ، أبو عثمان عمرو. ۱۹۶۹م. *كتاب الحيوان*. الطبعة الثالثة. بيروت: دارإحياءالتراث العربى.

خانلرى، زهرا. ۱۳۷۵هـ.ش. *فرهنگ ادبيات جهان*. الطبعة الأولى. طهران: منشورات خوارزمى.

الدسوقى، عمر. ۲۰۰۳م. *فى الأدب الحديث*. الطبعة الثانية. بيروت: دار الفكر.

دورانت، ويليام جيمز (Durant, William James). ۱۳۷۸هـ.ش. *تاريخ تمدن (The Story of Civilization)*. الطبعة السادسة. طهران: انتشارات علمى فرهنگى.

ديچز،ديويد (Daiches, David). ۱۳۷۳هـ.ش. *شيوه هاى نقدأدبى (Critical Approaches to Literature)*. ترجمة محمد تقى صادقيان وغلامحسين يوسفى. الطبعة الرابعة. طهران: انتشارات علمى.

راغب، نبيل. ۲۰۰۳م. *موسوعةالنظريات الأدبية*. الطبعة الأولى. بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر.

رضايى، عربعلى. ۱۳۸۲هـ.ش. *واژگان توصيفى أدبيات*. الطبعة الأولى. طهران: فرهنگ

معاصر.

سیدحسینی، رضا. ۱۳۸۱هـ.ش. *مکتب های أدبی*. الطبعة الثانیةعشرة. طهران: مؤسسه منشورات نگاه.

شمیسا، سیروس. ۱۳۷۸هـ.ش. *نقد ادبی*. طهران: فردوس. الطبعة الأولی.

شوقی، أحمد. ۱۹۸۸م. *الأعمال المسرحیة الکاملة*. بیروت: دار العودة.

غنیمی هلال، محمد. ۱۹۹۹م. *الأدب المقارن*. الطبعة الثالثة. بیروت: دارالعودة.

ـــــــــــــــ . ۲۰۰۱م. *النقدالأدبی الحدیث*. القاهرة: دارنهضةمصر.

فرای، نورتروپ (frye, Northrop). ۱۳۷۷هـ.ش. *تحلیل نقد (Anatomy of Criticism)*. ترجمة صالح حسینی. الطبعة الأولی. طهران: منشورات نیلوفر.

الکتانی، محمد. ۱۹۸۲م. *الصّراع بین القدیم و الجدید*. الطبعة الأولی. بیروت: دار الثقافة.

گرین، ویلفرد و... (Guerin, W.L.). ۱۳۸۰هـ.ش. *مبانی نقد أدبی (Critical Approaches to Literature)*. ترجمة فرزانه طاهری. الطبعةالثانیة. انتشارات نیلوفر.

وهبه، مجدی. ۱۹۹۴م. *معجم مصطلحات الأدب*. بیروت: مکتبة لبنان.

هومیرس. ۲۰۰۴م. *الإلیاذة*. تعریب سلیمان البستانی. تقدیم جابر عصفور. المجلس الأعلی للثقافة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی